إلهي يا شوق

عدنان عبد القادر

الطبعة الأولى

١٤٣١ هـ - ٢٠١٠ م

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسۡلِمُونَ﴾.[1]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفۡسٖ وَٰحِدَةٖ وَخَلَقَ مِنۡهَا زَوۡجَهَا وَبَثَّ مِنۡهُمَا رِجَالٗا كَثِيرٗا وَنِسَآءٗۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِي تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلۡأَرۡحَامَۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيۡكُمۡ رَقِيبٗا﴾.[2]

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَقُولُواْ قَوۡلٗا سَدِيدٗا ﴿٧٠﴾ يُصۡلِحۡ لَكُمۡ أَعۡمَٰلَكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡ ذُنُوبَكُمۡۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدۡ فَازَ فَوۡزًا عَظِيمًا﴾.[3]

أما بعد:

فإن أحسن الكلام كلام الله سبحانه وتعالى وخير الهدي هدي محمدٍ ﷺ، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعةٍ ضلالة وكل ضلالةٍ في النار.

لقد وصف الله تعالى نبيه محمداً ﷺ بالعبودية في أشرف المواطن وأسمى الأحوال، في مقام الإسراء ﴿سُبۡحَٰنَ ٱلَّذِيٓ أَسۡرَىٰ بِعَبۡدِهِۦ لَيۡلٗا

١- آل عمران: (١٠٢).

٢- النساء (١).

٣- الأحزاب (٧٠، ٧١).

﴾، والدعوة إليه ﴿ وَأَنَّهُۥ لَمَّا قَامَ عَبۡدُ ٱللَّهِ يَدۡعُوهُ كَادُواْ يَكُونُونَ عَلَيۡهِ لِبَدٗا ﴾، وفي الإيحاء ﴿ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَىٰ عَبۡدِهِۦ مَآ أَوۡحَىٰ ﴾، والتحدي ﴿ وَإِن كُنتُمۡ فِي رَيۡبٖ مِّمَّا نَزَّلۡنَا عَلَىٰ عَبۡدِنَا فَأۡتُواْ بِسُورَةٖ مِّن مِّثۡلِهِۦ ﴾.

لكمال عبوديته اختص بذكرها يوم القيامة من بين الأنبياء بعد أن تبرأوا من الشفاعة للخلق، قال عيسى عليه السلام: ائتوا محمداً، عبدٌ غفر الله له ما تقدم من ذنبه وما تأخر. (١) فهو أعبد الناس لله تعالى وأشدهم تحقيقاً لعبادته.

وبوصف العبودية رد على أهل الغلو الذين أفرطوا في تعظيم النبي صلى الله عليه وسلم وغلوا في محبته فتجاوزوا به قدره ورفعوه إلى مرتبة الألوهية، لذا قال النبي صلى الله عليه وسلم: «لا تطروني كما أطرت النصارى ابن مريم، إنما أنا عبده، فقولوا عبد الله ورسوله». (٢)

فهو صلى الله عليه وسلم لا يملك لنفسه ولا لغيره نفعاً ولا ضراً، ولا يعلم الغيب ﴿ قُل لَّآ أَمۡلِكُ لِنَفۡسِي نَفۡعٗا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُۚ وَلَوۡ كُنتُ أَعۡلَمُ ٱلۡغَيۡبَ لَٱسۡتَكۡثَرۡتُ مِنَ ٱلۡخَيۡرِ وَمَا مَسَّنِيَ ٱلسُّوٓءُ ﴾، ﴿ قُلۡ إِنِّي لَآ أَمۡلِكُ لَكُمۡ ضَرّٗا وَلَا رَشَدٗا ﴾.

فهو عبد فقير إلى الله تعالى، قد حقق أكمل أنواع الحب والذل البشري لله تعالى. فما طابت الدنيا إلا بذكره ومعرفته، ولا الآخرة إلا بقربه ورؤيته، فلو احتجب عن أهل الجنة لاستغاث أهل الجنة كما يستغيث أهل النار في النار وأعلنوا بالصياح.

١- رواه البخاري (٧٤٤٠).

٢- رواه البخاري (٣٤٤٥)

فكل قلوب تألهت سواه فهي فاسدة ليس لها صلاح، وكل صدور خلت من هيبته وتقواه فهي ضيقة ليس لها انشراح، وكل نفوس أعرضت عن ذكره فهي مظلمة الأرجاء والنواح ﴿ ٱللَّهُ نُورُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِۦ كَمِشْكَوٰةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ﴾. [1]

١- استنشاق نسيم الأنس لابن رجب (١٧).

إلهي يا شوق

حركاته ﷺ تفيض بالحب، وإشاراته تزخر بمشاعر الود، وكلماته يفوح منها عبير الشوق، روحه تسرح حول بيت الحبيب، تطوف به، وقلبه يكاد يتقطع شوقاً إلى زيارته. مكث خمس سنين ممنوعاً من زيارته، إلى أن أصر على زيارة البيت، صاحبته رؤيا في المنام أنه يزوره، فسارع ﷺ وتجهز له ومعه أصحابه. هانت أمامه كل الصعاب التي تعترضه من أجل الزيارة، أخبروه أن جموعاً من قريش أمامه تمنعه من الوصول إلى بيت الله تعالى، أصر على إكمال مسيرته التي يحدوها الحب.

عندما رأى الكعبة واقترب منها أكب على الحجر الأسود يقبله من شدة الاشتياق. قال ابن عباس رَضِيَ اللهُ عَنْهُ: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض فمن صافحه فكأنما صافح الله تعالى».[١] ثم جعل جانبه الأيسر محاذياً للكعبة، إذ القلب يميل إلى الجانب الأيسر من الصدر، فيكون القلب في هذا الوضع أقرب إلى بيته. وطاف حول بيت حبه سبعاً إظهاراً لكمال المحبة.

لذا إذا وقف أحدنا للصلاة وضع يده على صدره على قلبه، يخاطب ربه ويده على قلبه، قد ملك حبك قلبي، واستوت محبتك على عرش قلبي.

كان جبريل هو الرسول بينه وبين الإله الحبيب الذي ملك رقه، وكان ينزل عليه بكلام الله تعالى. فكان ﷺ يتلهف للقاء جبريل عَلَيْهِ السَّلَامُ من شدة شوقه إلى الله تعالى، فكان يستبطئ مجيئه، فأتت الإجابة ﴿ وَمَا نَتَنَزَّلُ إِلَّا بِأَمْرِ

١- موقوف صحيح. رواه عبدالرزاق (٣٩/٥) وصححه البوصيري وابن تيمية والعجلاني في كشف الخفاء (٦٥٤/٢). انظر تخريجه في موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٥٦٣/٢-٥٦٤).

رَبِّكَ لَهُۥ مَا بَيۡنَ أَيۡدِينَا وَمَا خَلۡفَنَا وَمَا بَيۡنَ ذَٰلِكَۚ وَمَا كَانَ رَبُّكَ نَسِيّٗا ﴾.

كان ﷺ يفرح أشد الفرح إذا ما نزل عليه جبريل حاملاً معه رسالة من الله تعالى، وتغمره السعادة، فكان ينفق كل ما بين يديه وما خلفه. قال ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ: «كان أجود ما يكون في رمضان حين يلقاه جبريل، فرسول الله ﷺ أجود بالخير من الريح المرسلة».(١)

إذا صام ﷺ لم يكن يفطر عند الغروب، بينما أمر الصحابة بالفطر. كان يواصل صومه اليومين والثلاثة، وعندما سئل قال ﷺ: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقين». (٢)

عندما يتواعد الحبيبان للقاء، لا يصلح أن يأكل أحدهما في بيته ويشبع ثم يذهب للقاء الحبيب. بل قمة اللذة أن يجيع نفسه طيلة اليوم، لينادم الحبيب في الليل، فيأكل ويشرب لحظة اللقاء والصفاء، حينئذ يشعر بغاية السعادة. وإذا ما كان الحبيب مصافياً، وكلماته تقطر وداً، وتفوح حباً، وتفيض عذوبة وصفاء فإنك تستغني بها عن كل طعام وشراب ولو كان في متناول يدك، قال ﷺ: «إني أبيت يطعمني ربي ويسقيني». فقربه ومصافاته طعام وشراب.

تجد قلبك يهتف به كل لحظة وقد غلبه الشوق وأذله الوله: إلهي! يا شوق!

عند انتهاء فصل الصيف وابتداء فصل الشتاء تغيرات نفسية كثيرة تحصل للروح. لذا تجد الذكريات تتوالى على قلبك، حب قديم يعود إلى

١- رواه البخاري (٦)

٢- رواه البخاري (١٩٦٦)

الذاكرة، أيام جميلة تسرح إلى ذهنك. فإذا ما عاينت السحب وقد حجبت الشمس في رابعة النهار وملأت السماء، فتداخل بياض الغمام بزرقة السماء، وبرودة الجو قد مست جلدك، وأمامك شيء من خضرة الأرض، ورذاذ المطر يترشرش عليك، حينئذ روعة الحب تهجم على قلبك، وقمة الشوق تسيطر عليك، تتمنى لقاء صفيك، أو مهاتفته أو رسالة منه تضمها إلى صدرك، إلى قلبك، أو إشارة منه لتتفوه بمشاعر الود التي ملكت روحك وفؤادك. كان قلب النبي ﷺ معلق بالله الذي في السماء، فكان إذا ما نزل المطر من السماء كشف عن بدنه حتى يصيبه المطر فيتحسسه ويقول فرحاً مستبشراً مخبراً من حوله: «لأنه حديث عهد بربه عز وجل». [١]

غاية سعادته ﷺ أن يعيش ذل حبه لمولاه، لذا كثيراً ما يتفوه بأن نفسه وروحه قد ملك رقها إلهه ومولاه. فكان إذا ما أقسم يميناً قال: «والذي نفسي بيده»، «والذي نفس محمد بيده».

١- رواه مسلم (٨٩٨).

علاقة حب

حياته كلها قائمة على الحب. بدءاً من استيقاظه من النوم مع بداية اليوم إلى خلوده إلى الفراش، كلها قائمة على الحب. علاقته ليست علاقة زجر ونهي وأمر ووجوب، وإنما علاقة أصلها الحب وبذل الروح والقلب والجسد لله.

طبيعة المرء إذا ما دخل الليل هاج وجده واشتاق للحبيب. وقد يتصل في منتصف الليل فيمن يحب، ويطيل مكالمته، وإذا ما وضع رأسه على الوسادة للنوم فإنه يتذكر حبيبه والحوادث التي مرت عليه في يومه بينه وبين حبيبه، وعندما يستيقظ أول ما يتذكر حبيبه.

هذه حال النبي ﷺ مع ربه تعالى، إذا ما دخل الليل هاج وجده إلى الله تعالى جن الظلام وهاج الوجد من سقم والشوق حرك ما عندي من الألم فقام مخاطباً ربه، ربما يقف الساعات وهو لا يشعر بنفسه. قال حذيفة رضي الله عنه: «قام بنا رسول الله ﷺ في ليلة من الليالي فابتدأ بالبقرة ثم بالنساء ثم بآل عمران في ركعة واحدة». أي ما يقارب ثلاث ساعات ونصف الساعة يناجي ربه تعالى، حتى تشققت قدماه، فقيل له: لماذا تفعل ذلك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر. فأجابهم ﷺ إن المسألة لا تتوقف على المغفرة، إني محب، أريد أن يظهر أثر المحبة على ظاهري فقال ﷺ: «أفلا أحب أن أكون عبداً شكوراً». [1] فالعبد هو الذي كملت محبته لمن يحب مع كمال ذله له، والشكور هو الذي ظهر على جسده أثرها.

وفي ليلة، بينما كان النبي ﷺ نائماً بقرب عائشة أحب أزواجه إليه، إذ به

١- رواه البخاري (٤٨٣٧).

يقوم فجأة وهو يشعر بالاشتياق إلى الله تعالى، فقالت له أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها تريده يبقى معها: يا رسول الله! إنا نحب هواك. فقال ﷺ: يا عائشة ذريني أتعبد لربي. (١)

يقوم للصلاة مخاطباً ربه مناجياً له مرة أخرى، حتى إذا شعر أنه أخذ قسطاً من الوصال خلد إلى الفراش، فاجتمعت له آهات المحبة التي اجتمعت لإبراهيم عليه السلام والذي من أجله وصفه الله تعالى بأنه ﴿ أَوَّٰهٌ ﴾. فكان يفيض لسانه بكلمات الحب لحظة النوم والتي يعبر فيها ﷺ عن كمال استسلامه بروحه وجسده لله تعالى «اللهم أسلمت نفسي إليك، ووجهت وجهي إليك، وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك، رغبة ورهبة إليك». (٢)

فعندما يغمض عينيه ليتمم استسلامه لحبِه، تسرح روحه وقلبه حينئذ في رياض العرش «تنام عيني ولا ينام قلبي» (٣) «إني أبيت يطعمني ربي ويسقين» هذه هي حياة الروح.

فينام على اسمه وعلى حبه «باسمك اللهم أموت وأحيا» (٤) فإذا استيقظ كان أول ما يجول في ذهنه هو الله تعالى، فيذكره «الحمد لله الذي أحيانا بعدما أماتنا وإليه النشور». (٥)

١- رواه أبو الشيخ في أخلاق النبي ﷺ (٢٠٠-٢٠١) وصححه ابن حبان (٦٢٠) والألباني في السلسلة (٦٨٨).

٢- رواه البخاري (٦٣١٥).

٣- رواه أحمد (٢/٢٥١) وصححه ابن حبان (٦٣٨٦).

٤- رواه البخاري (٦٣٢٤)

٥- رواه البخاري (٦٣١٢)

فحياته ﷺ كلها تفيض بمشاعر الحب نحو الله تعالى. قال رباح القيسي: «عجبت للخليقة كيف أنست بسواك؟! بل عجبت للخليقة كيف استنارت بذكر سواك». (١) وقال أحد العباد: «سرور المؤمن ولذته في الخلوة بمناجاة سيده عز وجل». (٢)

وكان شيخ الإسلام ابن تيمية إذا اختلى مع الله تعالى قال:

وأخرج من بين البيوت لعلني … أحدث عنك النفس يارب خاليا

فما تلذذ المتلذذون بمثل الخلوة بمناجاة الله عز وجل. وقد سئل حبيب بن يزيد الرقاشي: بأي شيء تقر عيون العابدين في الدنيا؟ فقال: ما أعلم شيئاً أقر لعيون العابدين من التهجد في ظلمة الليل.(٣) قالت أم سعيد: كان داود الطائي إذا دخل الليل ربما ترنم في السحر بشيء من القرآن، فأرى أن جميع نعم الدنيا جمع في ترنمه تلك الساعة. (٤)

كان النبي ﷺ يأنس بذكر الله تعالى عند كل أمر جميل، وعند كل لذيذ ومتعة: عند دخول المنزل لا يذكر إلا اسم الله (بسم الله)، وعند الطعام لا يذكر إلا اسمه (بسم الله)، وعند الانتهاء من الطعام لا يذكر سواه (الحمد لله الذي أطعمني هذا ورزقنيه)، وعند الوقاع لا يذكر إلا اسمه (اللهم جنبنا الشيطان)، وإذا أخلد إلى النوم والراحة (باسمك اللهم وضعت جنبي)، (اللهم أسلمت نفسي إليك)، وعند الاستيقاظ لا يذكر إلا اسمه (بسم الله

١- الاستنشاق لابن رجب (٧٦)

٢- رواه البخاري (٦٣١٢).

٣- الاستنشاق (٨٣-٨٤)

٤- الاستنشاق (٨٩)

توكلت على الله)، وعند ركوب الدابة (بسم الله، الحمد لله)، وعند دخول المسجد (اللهم افتح لي أبواب رحمتك)، وعند رؤيته الأصحاب والخلان أول ما يذكر اسم الله (السلام عليكم)، وعندما يرى أمراً يهوله أو يزعجه قال: «سبحان الله، سبحان الله» كما في رؤياه لعذاب القبر في المنام.

وعند وقوع أمر يهمه قال: «إنا لله وإنا إليه راجعون»، وعند الجرح: «بسم الله»، وفي أمر يغضبه: «أعوذ بالله من الشيطان الرجيم»، ولدخول الخلاء يذكر اسمه، وعند إغلاق الباب يذكر اسمه، وفي وكاء السقاء يذكر اسمه، ويصون لسانه من العقد إلا به، فعند عقد الإيمان: «من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت» فلا يعقد إلا باسمه، ولا يذبح إلا باسمه، ولا يستعين إلا باسمه، ولا ينذر إلا له لكمال محبته له، ولكمال التوحيد.

وعند الصباح والمساء قال: «بسم الله الذي لا يضر مع اسمه شيء». وعند المرض يقول: «بسم الله أرقيك». وفي أحلك المواطن يذكر الله تعالى، فإذا كان العشاق يذكرون معشوقاتهم عند القتال والنزال كما قال عنترة:

ولقد ذكرتك والرماح نواهـل
منـي وبيض الهند تقطر من دمي
فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعـت كبـارق ثغـرك المتبسـم

فإن المؤمن يتلهف قلبه بذكر اسم الله تعالى فيه ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةً فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾.

وإذا كان المحبون يذكرون محبوباتهم عند الفزع كما قال الآخر:

ولقد ذكرتك في السفينة والرّدى
متوقـع بتلاطـم الأمـواج
والجو يهطل والرياح عواصف
والليل مسود الذوائب داجي
وعلى السواحل للأعادي غارة
يتوقعون لغارة وهياج
وعَلَتْ لأصحاب السفينة ضجة
وأنا وذكراك في ألذ تناجي

فإن النبي ﷺ كان إذا حزبه أمر فزع إلى الصلاة. (١) وقال ﷺ: «ثنتان لا تردان - أو قلما تردان - الدعاء عند النداء وعند البأس حين يلحم بعضهم بعضاً». (٢)

١- رواه أبو داود وصححه الألباني (١١٩٢).
٢- رواه أبو داود وصححه الألباني (٢٢١٥)

رحلة حب

إن أسعد اللحظات تلك التي يلتقي فيها المحب بخليله، يفضي إليه بحبه ويبث إليه شكواه، ويمنحه قلبه وروحه. وإن غاب الخليل لحظة عن بصره جعل له رمزاً مادياً يذكره بخليله، يخاطبه بسويداء قلبه، وينظر إليه بطرْف مملوء بالشوق، ويضمه إلى صدره وقد لان جلده، وطرح نفسه بين يديه.

حياة قلبي

إن غاية المحاب وأعظمهم وأجلهم هو الله تعالى. فهو حياة القلوب وروحها، وبه سعادتها وطيبها. وأسعد اللحظات تلك التي تمضيها في اتصالها به، والانطراح بين يديه، وتمرغها في حضرته. ومن كرم الله تعالى وجوده على عباده وتفضله عليهم أن جعل رمزاً مادياً تهوى إليه قلوبنا، وتعبِّر عنده عن كل مظاهر الحب له والتعبد والتأله بأيدينا وقلوبنا وأفئدتنا، وكل إشارات الحب من تقبيل وعناق وارتشاف وغيرها من الأشواق، أعني به كعبة الله تعالى وبيته وحرمه ﴿ فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ ﴾. لذا كلما فارقت الأجساد تلك البقعة الطاهرة تاقت إليها واشتاقت وتلهفت ﴿ وَإِذۡ جَعَلۡنَا ٱلۡبَيۡتَ مَثَابَةٗ لِّلنَّاسِ ﴾، تثوب أي ترجع إليها وتشتاق إليها القلوب.

ملك قلبي

رحلة الحج هي رحلة الحب إلى الله تعالى وهي رحلة دنيوية يقوم بها العبد وافداً إلى الله تعالى. يقدم الحاج وقد تجرد من متعلقات الدنيا من ثياب ومال وجاه. وإنما يلبس الثوبين الأبيضين (الإحرام) اللذين يدلان على نقاوة القلب وبياضه وصفاء الظاهر متهيئاً للقاء الله تعالى. ثم يهل بالحج أي يرفع

صوته، معلناً للخلق مستبشراً، وقد غمره الفرح والسرور أنه مقبل لزيارة من ملك قلبه ورِقه (لبيك اللهم لبيك)، أي لب قلبي وسويداؤه قد تعلقت بك مرة بعد أخرى.

استنشاق عبير الأنس

ثم يقف في عرفة أرض قاحلة جرداء، لا زينة فيها ولا بناء، خارجاً إلى الله تعالى، يطلب الأنس به، يُعّرف نفسه إلى الله تعالى، ومن هنا سميت عرفة.

ثم ينطلقون إلى المزدلفة ليلاً وهي أول الحرم – حرم الملك سمي حرماً لعظم حرمته يزدلفون إلى الله تعالى، ويتقربون إليه بعد دخول الليل وهي لحظة هيجان الوجد.

جن الظلام وهاج الوجد من سقم   والشوق حرك ما عندي من الألم

فيلقون بأجسادهم المجردة من الثياب على الأرض العفراء، أرض الحرم المباركة. قد مس التراب جلودهم، مهادهم الأرض، ولحافهم السماء. فيبيتون محبين لله، معظمين متضرعين إليه سبحانه، معلنين لله تعالى أنهم قد صفت سرائرهم وعلانيتهم له سبحانه. فتسرح أرواحهم ليلاً في حمى مليكها، تستنشق عبير الأنس من نسيم رياض القدس.

نحرت قلبي له

فيغدون قبل الشروق إلى الجمرة، حيث ينتزعون حظوظ الشيطان ودواعي الشر من قلوبهم، فيرمونها ويقذفون بها على شكل حصيات سبع، وهو العدد التي تستعمله العرب للدلالة على الكمال والكثرة والشدة، بأن حظ الشيطان استخرج منهم. ويكبرون الله تعالى مع كل حصية، معلنين أن محبة

الله تعالى قد استوت على عرش قلوبهم.

ثم ينحر الهدي هو فداء عن نفسه فكأنما ينحر قلبه لله تعالى يهديه إليه (الهدي) تقرباً، ابتغاء مرضاته. ثم يحلق رأسه تذللاً له سبحانه.

التقبيل

ثم يغتسل ويتنظف ويتطيب بأفضل الطيب، ويتجمل بأجمل لباس لزيارة الله تعالى. إن المحب إذا ما رأى المحبوب فإن أول ما يبدؤه به المصافحة الحارة والتقبيل، وربما يعانقه. وهكذا كان يفعل النبي ﷺ، إذ أول ما يبدأ به هو استلام الحجر وتقبيله حباً وشوقاً، لذا قال ابن عباس رضي الله عنه: «الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه فكأنما صافح الله تعالى». [1]

ما الحب إلا للحبيب الأول

ثم يبدأ بالطواف حول حبه وغايته كما يحوم المحب حول حبه الذي تعلق به وشغف به، ولله المثل الأعلى.

نقل فؤادك حيث شئت من الهوى ... ما الحب إلا للحبيب الأول

كم منزل في الأرض يعشقه الفتى ... وحنينه أبداً لأول منزل

جاعلاً الجانب الأيسر الذي يميل موضع قلبه إليه هو أقرب المواضع إلى الكعبة. فيطوف سبعاً، وهذا العدد يمثل الكثرة الكاثرة والكمال في طوافه حول حبه، لعل باب القبول والقربى يفتح له، يتحايل حبه بين عينيه وفي قلبه.

١- موقوف صحيح. رواه عبدالرزاق (٣٩/٥) وصححه البوصيري وابن تيمية والعجلاني في كشف الخفاء (٦٥٤/٢). انظر تخريجه في موقف ابن تيمية من الأشاعرة (٥٦٣/٢-٥٦٤).

خطب عروة إلى ابن عمر ابنته وهما في الطواف فلم يجبه بشيء، ثم رآه بعد ذلك فاعتذر إليه وقال: كنا في الطواف نتخايل الله بين أعيننا.

أبوح بحبي

ثم بعد إظهاره تعلق قلبه بغايته وحبه وهو ربه تعالى ينطلق عند عتبة بابه -مقام إبراهيم- يذهب يكلم الله تعالى ويخاطبه، ويفضي إليه بما يجول في صدره من حب وتعلق، وذلك بالصلاة ركعتين خلف مقام إبراهيم ﷺ. ثم لا يتوقف حتى ينطلق إلى زمزم، فيملأ جوفه بماء هذا البيت إظهاراً لشغفه بكل ما يعلقه بمحبوبه، فيملأ قلبه وعقله وجوفه بكل ما يذكره بالمحبوب.

ما بين صفاء ومروة

ثم ينطلق إلى (الصفا - الصفاء) يقف عليه معلناً لربه أنه سيصفي قلبه من كل شائبة علقت بقلبه، ليبقى قلبه خالصاً لربه.

ثم ينطلق إلى (المروة) فيعلوه معلناً أنه سيطلب المروءة والثبات على ذلك (فالمروة من المروءة والثبات)، هكذا سعيه ما بين صفاء القلب وثباته ومروءته، سبعاً إظهاراً للذل التام للحصول على تلك الغاية إلى أن يلاقي ربه تعالى.

فلا يزال يتردد على فناء الدار مرة بعد أخرى يرجو أن يرحم في الثانية إن لم يرحم في الأولى. ويسير ذاكراً الله تعالى بقلبه قبل لسانه، ثم يلهج لسانه بذكره سبحانه: ﴿فَإِذَا قَضَيْتُم مَّنَاسِكَكُمْ فَاذْكُرُوا اللَّهَ كَذِكْرِكُمْ آبَاءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾.

الوداع

ثم يرجع من هذه الرحلة الدنيوية إلى الله تعالى وقد تخلص من كل الشوائب القلبية، وتنقى من كل الآثام ﴿فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلَآ إِثْمَ عَلَيْهِۚ لِمَنِ ٱتَّقَىٰۗ﴾، فيودع البيت وقلبه متقطع لفراقه.

فبحبه يجد حلاوة الإيمان، قال النبي ﷺ: «ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار». [١]

عليه مدار سؤال النبي ﷺ: «اللهم إني أسألك حبك، وحب من يحبك، وحب كل عمل يقربني إلى حبك». [٢] ومن أدعية السلف المأثورة: اللهم اجعل حبك أحب إلي من نفسي وأهلي، وأحب لي من الماء البارد.

اللهم ما رزقتني مما أحب فاجعله قوة لي فيما تحب.

اللهم ما زويت عني مما أحب فاجعله فراغاً لي فيما تحب.

١- رواه البخاري (١٦).

٢- رواه أحمد (٥/٢٤٣) وصححه (التهذيب ٦/٢٠٥) والترمذي (٣٢٣٥).

لحظة صفاء مع النفس

أمر الإنسان غريب ذاك الذي يدعي المحبة، تجده يقف مع من يحب مدة طويلة، قد يكون هو المتكلم وقد يكون مستمعاً، بينما لو وقف خمس دقائق يخاطب من ملك قلبه وهو الله تعالى في صلاته تجده يتململ، ويتضجر، ويتأفف من الإمام الذي أطال دقيقة زائدة.

عندما تصل له رسالة من صديقه الحميم المسافر، فإنه يقرأها بتمعن وتدبر، ولا ينتقل إلى الجملة الثانية إلا إذا انتهى من تدبر الجملة الأولى بكل ما تحويه من إشارات ومعانٍ. وإذا ما قرأ الجملة الثانية وفهم معانيها وإشاراتها، فإنه يحاول أن يربطها بالجملة الأولى قبل أن ينتقل إلى الجملة الثالثة. وهكذا إلى أن ينتهي منها، ثم يعيد قراءتها مرة أخرى قبل أن يطويها. وقد يجعلها في جيبه الأعلى القريب من قلبه. وإذا أراد النوم جعلها تحت وسادته ليعيد قراءتها مرة أخرى عند النوم. بينما رسالة الله تعالى وهي القرآن كلام الله عندما يقرأ صفحة واحدة فإنه يقرأها بلا تدبر، ولكن من اجل الانتهاء منها. ولو سألته: ماذا فهمت من هذه الصفحة؟ لم يحر جواباً.!

إذا خاطبه أحب الناس إليه، فإن عقله وقلبه وعينيه وسمعه كلها تجتمع على من يحب، وإذا فاته شيء مما قاله طلب منه الإعادة. بينما إذا وقف في صلاته وكلام الله تعالى يتلى عليه ترى فكره يذهب في الأسهم والتجارات والصفقات، وقد ينتقل إلى العداوات مع منافسيه أو زوجته، وقد يصل فكره إلى ما دون ذلك. فلا يشعر إلا والإمام يقول: السلام عليكم ورحمة الله، معلناً إنهاء الصلاة. وإذا فتح المذياع فسمع كلام الله تعالى يتلى أغلقه بسرعة.

أي محبة مزعومة لله تعالى ﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ﴾. فهذا هو الميزان، فزن نفسك به، وقارنه بغيرك.

فمحبة الله تعالى أفضل الأعمال والأقوال بل روحها «من أحب لله وأبغض لله وأعطى لله ومنع في الله فقد استكمل الإيمان».[1]

١- رواه أبو داود (٤٦٨١) وحسنه الترمذي (٢٥٢١) وصححه الحاكم (١٦٤/٢) والألباني في السلسلة (٣٨٠).

رائحة فم الحبيب

المحب يحب كل شيء يصدر من محبوبه، يحب كل صفة اتصف بها محبوبه، يحب كلامه والطريقة التي يتكلم بها، يعجب بحركاته، بطريقة مشيه. يحب لباسه والألوان التي يختارها. بل يحب رائحة عرقه الطبيعية التي لم تخالطها روائح صناعية، ولم تخالطها الأقذار والأوساخ، لأنها تميزه عن غيره كالبنان الذي يميز كل فرد عن آخر.

فالعبد علاقته مع ربه علاقة حب، فهو يحب الله تعالى، والله تعالى يحبه ﴿ فَسَوْفَ يَأْتِي ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ ﴾. فإذا ما صام العبد لله تعالى متقرباً إليه، باذلاً مهجته له، ممسكاً عن أحب الطعام إليه، واستعاض عنه بالتتيّم الذي ملأ جوفه، ممتنعاً عن شرب الماء مع شدة العطش، مكتفياً بشرب حبه، مجتنباً شهوته ومعاشرته عشيقته وخليلته رفيقة دربه، مترقياً لرفقة الملأ الأعلى.

يحدوه الشوق إلى جنابه، وقد رطب لسانه بذكره، وعطّر فمه بقراءة كتابه، ونوّر وجهه بالسجود له، فطرب قلبه شوقاً للقائه، وسكن فؤاده بيقين الميعاد ورجاء اللقاء. «للصائم فرحتان فرحة عند فطره، وفرحة عند لقاء ربه». [1]

فكلما اقترب من حبه، من إلهه شبراً اقترب إليه مولاه ذراعاً حباً وداً. وإذا اقترب إليه ذراعاً شوقاً وذلاً تقرب إليه مولاه باعاً موالاةً وداً، فإذا أقبل على مولاه يمشي في غاية السرور، أسرع إليه مولاه ضاحكاً مستبشراً، حتى أصبحت رائحة فم المحب المقبل أطيب عند إلهه من ريح المسك «لخُلوف فم الصائم أطيب عند الله من ريح المسك». [2] تلك الرائحة هي التي تميزه عن غيره.

١- رواه مسلم (١١٥١) .

٢- رواه البخاري (١٨٩٤).

أنس الفؤاد

المحبة تعلق القلب بالمحبوب، وانصباب الفؤاد إليه، وسكونه في حجره، يأنس بوداده، لا يفتر من ذكره، واقفاً ببابه، سائلاً عفوه.

ترى المرأة العجوز الطاعنة في السن تجر رجليها تستبشر فرحاً وهي تطوف حول بيت الله، حول الكعبة من شدة الشوق إلى الله تعالى، وذاك الشيخ الكبير متكئاً على عكازته، قد انحنى ظهره، وكاد يصل إلى الأرض متضرعاً منكسراً بين يدي جلاله وهو يلهج بذكره طائفاً مستبشراً.

وآخر محمول على أربعة رجال تضطرب الأخشاب الحاملة له يميناً وشمالاً وهو يستغيث ويسأل الله رحمته، وذاك العاجز يدفع على الكرسي قد دفع أموالاً جمعها منذ سنوات ليطاف به حول بيته، يأنس بذكره، طالباً عفوه ورضاه.

ورجل شديد الغيرة، شديد حجاب القبة، ترغّبه زوجته ليطوف بها، فيستجيب لها فرحاً، وقد أخذ بيدها وأخذت بيده، لا ليطوفا حول بيت زوجها وإنما حول بيت حبها الأعلى، حول كعبة الله تعالى.

فيرى الزوج الغيور زوجته معشوقته خاضعة لمولاها، ساجدة سجود حب لله تعالى ولا تسجد لزوجها، يراها تبكي شوقاً إلى الله وعبودية، ويسمعها تبتهل إليه، يرمقها قائمة بين يدي مليكها، من ملك رق قلبها، قائمة له قيام وله تام وذل تام، مقام عبودية، فيظل فرحاً بها. يكرر معها ألفاظ الوله والحب لله تعالى خمس مرات في اليوم والليلة، وفي كل صلاة ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ﴾، فيسأل الله تعالى أن يزيدها طاعة وعبودية وسجوداً وأنساً بالله تعالى.

غيرة النبي ﷺ لله تعالى

قال رسول الله ﷺ: إن الله يغار، وغيرة الله أن يأتي المؤمن ما حرم الله. [١] لقد كان النبي ﷺ شديد الحساسية لغيرة الله تعالى، فالمحب شديد الحساسية في مرضاة المحبوب. فأفعاله ﷺ وطاعته لله تعالى ناتجة عن حب، لا عن عقوبة. فأظهر حبه لله تعالى ليعلو مقامه، ويكون نجماً ساطعاً في الملأ الأعلى، وسراجاً منيراً للعالمين. لذا قال النبي ﷺ مخبراً عن ربه تعالى غيرة لله أنه قال: «أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملاً أشرك فيه معي غيري تركته وشركه» [٢] فالنبي ﷺ له حاسة سادسة –كما يقال- لذرائع الشرك، وكل ما يخدش أو يمس مقام التوحيد. من ذلك:

١- السجود له

لما قدم معاذ بن جبل من الشام سجد لرسول الله ﷺ.

فقال ﷺ: ما هذا؟

قال: يا رسول الله قدمت الشام فرأيتهم يسجدون لبطارقتهم وأساقفتهم فأردت أن أفعل ذلك بك.

قال ﷺ: فلا تفعل. فإني لو أمرت شيئاً أن يسجد لشيء لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها. [٣]

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ دخل حائطاً من حوائط الأنصار فإذا

١- رواه البخاري (٥٢٢٣).

٢- رواه مسلم (٢٩٨٥).

٣- رواه أحمد (٤/٣٨١) وصححه ابن حبان (٤١٧١)

جملان يضربان ويرعدان، فاقترب رسول الله ﷺ منهما، فوضعا جرانهما بالأرض، فقال بعض الصحابة: سجد له.

فقال ﷺ: ما ينبغي لأحد أن يسجد لأحد. ولو كان أحد ينبغي أن يسجد لأحد لأمرت المرأة أن تسجد لزوجها لما عظّم الله عليها من حقه. (١)

فلم يجامل النبي ﷺ أولئك الصحابة الذي عظموه، فالله تعالى أولى بالتعظيم والاستحياء منه.

٢- القيام لله تعالى

لما صلى النبي ﷺ وهو جالس لمرض، صلى الصحابة خلفه قياماً. فلم يتمالك أن أشار لهم ﷺ بالجلوس وهو في صلاته. ثم قال لهم بعد الصلاة: «كدتم تفعلوا فعل فارس والروم يقومون على عظمائهم، ألا فلا تفعلوا؟». مستشعراً ومتدبراً قول الله تعالى ﴿ يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ ﴾.

٣- لا يذبح بمكان ذبح فيه لغير الله

قال ثابت بن الضحاك: نذر رجل أن يذبح إبلاً ببوانة فسأل النبي ﷺ.

فقال ﷺ: هل كان فيها وثن من أوثان الجاهلية يعبد؟

قال: لا.

قال ﷺ: فهل كان فيها عيد من أعيادهم؟

قال: لا.

١- رواه الترمذي (١١٥٩) وصححه ابن حبان (٤١٦٢) والحاكم (١٧٢/٤)

قال: أوف بنذرك. فإنه لا وفاء لنذر في معصية الله ولا فيما لا يملك ابن آدم. [١]

حب متبادل صادر من النبي ﷺ عن حب كامل ملئ بالغيرة لله تعالى، لئلا يتعدى بنذره مقام الألوهية في قلبه ويخدشه.

٤- تعظيم الله تعالى

لما سمع النبي ﷺ بعض مسلمة الفتح يتبرك بشجرة ذات أنواط قال ﷺ: الله أكبر إنها السنن، قلتم والذي نفسي بيده كما قالت بنو إسرائيل لموسى: ﴿ٱجۡعَل لَّنَآ إِلَٰهٗا كَمَا لَهُمۡ ءَالِهَةٞ﴾.[٢] حتى في الأسماء لا يرضى أن يتسمى أحد من الخلق بما يضاهي اسم الله تعالى الذي يختص به كاسم «ملك الأملاك» أو «شاهنشاه»، قال ﷺ: «إن أخنع اسم عند الله رجل تسمى ملك الأملاك. لا مالك إلا الله عز وجل».[٣] حتى في الألفاظ قال: لا يقل أحدكم عبدي وأمتي، وليقل فتاي وفتاتي. [٤]

ونهى أن يرد من سأل بوجه الله، وكان يعظم الأمر الذي يحلف فيه بالله.

٥- يعلم ما في غد

عن الربيع بنت معوذ قالت: جاء النبي ﷺ إلى عرسي فجلس، فجعلت جويريات لنا يضربن بالدف ويندبن من قتل من آبائي يوم بدر، إذ قالت

١- رواه أبو داود (٣٣١٣).

٢- رواه أحمد (٥/٢١٨) وصححه الترمذي (٢١٨٠).

٣- رواه مسلم (٢١٤٣).

٤- رواه البخاري (٢٥٥٢)

إحداهن: وفينا نبي يعلم ما في غد. فقال رسول الله ﷺ: دعي هذه، وقولي بالذي كنت تقولين. [١]

٦- اختار عبداً رسولا

عن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جلس جبريل إلى النبي ﷺ فنظر إلى السماء، فإذا ملك ينزل، فقال له جبريل: هذا ملك ما نزل منذ خلق قبل الساعة.

فلما نزل قال: يا محمد! أرسلني إليك ربك. أملكاً أجعلك أم عبداً رسولاً؟

قال له جبريل: تواضع لربك يا محمد.

قال ﷺ: لا، بل عبداً رسولاً. [٢]

فاختار المقام الذي يحقق له أعلى مراتب العبودية ليحقق أعلى مراتب التوحيد.

ولما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء قال ﷺ: «رأيت الجنة وما فيها من نعيم، ورأيت النار ووعد الآخرة أجمع. ثم عرج بي حتى ظهرت لمستوى أسمع صريف الأقلام، ومررت بالملأ الأعلى. ثم ذهب بي إلى سدرة المنتهى، فإذا أوراقها كآذان الفيلة، وإذا ثمرها كالقلال، فلما غشيها من أمر الله ما غشي تغيرت، فما أحد من خلق الله يستطيع أن ينعتها من حسنها، عليها السندس والإستبرق، وغشيها فراش من ذهب، وتحولت ياقوتاً أو زمرداً أو نحو ذلك، وألوان لا أدري ما هي. فغشيتني ضبابة فخررت ساجداً. فالتفت إلى جبريل

١- رواه البخاري (٥١٤٧)

٢- رواه أحمد (٢/٢٣١) وصححه ابن حبان (٦٣٦٥)

كأنه حلس لاط. فأوحى إلي أن تخير: إن شئت ملكاً وإن شئت نبياً عبداً. فاختار ﷺ: نبياً عبداً.

٧- مراقبة ألفاظ الصحابة رضي الله عنهم

عن عبد الله بن الشخير: وفد بنو عامر إلى النبي ﷺ فقلنا: أنت سيدنا.

فقال ﷺ: السيد الله تبارك وتعالى.

قلنا: وأفضلنا وأعظمنا طولاً.

قال ﷺ: قولوا بقولكم أو بعض قولكم ولا يستجرينكم الشيطان.(١) وقال ﷺ: «لا تطروني كما أطرت النصارى بن مريم، إنما أنا عبده فقولوا: عبد الله ورسوله». (٢)

٨- عبد الله ورسوله

عن أنس أن ناساً قالوا: يا رسول الله! يا سيدنا وابن سيدنا! وخيرنا وابن خيرنا! فقال ﷺ: «يا أيها الناس! قولوا بقولكم، ولا يستجرينكم الشيطان. أنا محمد بن عبدالله أنا عبدالله ورسوله، وما أحب أن ترفعوني فوق منزلتي التي أنزلني الله عز وجل» (٣) خشي النبي ﷺ أن يتدرج بهم الشيطان إلى ألفاظ أخرى.

٩- موضع إحراج وحياء

من أقرب النـاس إلى النبي ﷺ عمر رضي الله عنه، لما حلف بغيـر الله تعالى لم

١- رواه أبو داود (٤٨٠٦)

٢- رواه البخاري (٣٤٤٥)

٣- رواه النسائي في اليوم والليلة (٢٤٨) وصححه ابن حبان (٦٢٤٠).

يقبلـه قلب النبي ﷺ فسارع بقوله:«ألا إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم، من كان حالفاً فليحلف بالله أو ليصمت». [١]

ولما مدحت امرأة النبي ﷺ فقالت متحببة إلى النبي ﷺ: وفينا رسول يعلم ما في غد. لم يرتضها ﷺ ولم يخجل من قوله لها: «دعي هذه». [٢] «لا يعلم ما في غد إلا الله تعالى». [٣] قول صادر من قلب النبي ﷺ عن حب كامل فيه غيرة لله تعالى.

١٠- فرحه بحمد الله وحده

لما نزلت براءة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت لها أمها: قومي إلى رسول الله فاحمديه. قالت عائشة: والله لا أقوم إليه ولا أحمد إلا الله عز وجل. [٤] فازداد حباً لها من أجل كلمتها هذه التي وحدت فيها الله تعالى الذي أنعم عليها بالبراءة. فأصبحت أحبهم إليه لما رأى منها كمال عبوديتها لمحبوبه، واختار أن يتوفاه الله في بيتها، فوافقت وفاته يومها بين سحرها ونحرها.

١١- وفاة إبراهيم بن النبي ﷺ

عطف النبي ﷺ ورحمته شديدة مع الصديق، والزوج، والقريب والبعيد، والضعيف والقوي، فكيف بأبنائه؟

١- رواه البخاري (٦٦٤٦)

٢- رواه البخاري (٥١٤٧)

٣- رواه الحاكم (٢/١٨٤) وصححه وحسنه ابن حجر (٩/١٦٧) انظر آداب الزفاف (١٨٢).

٤- رواه البخاري (٤٧٥٠)

شوقه ﷺ إلى استقبال الولد الذي طال زمناً، وهو عربي يحرص على العقب، لاسيما الذكور، ويحب التكاثر، وحببه لأمته للمكاثرة يوم القيامة «فإني مكاثر بكم الأمم يوم القيامة». [١] وكان الكفار يعيرونه بانقطاع النسل ﴿ إِنَّ شَانِئَكَ هُوَ ٱلْأَبْتَرُ ﴾، ولم يولد له منذ فترة طويلة، وأولاده كلهم ماتوا عدا فاطمة رضي الله عنها.

زوجات لم يحملن، والزوج جاوز الستين، فازداد عطفاً وحناناً. ربما من أجل ذا لم يشهد وفاة حفيدته بنت زينب، لأنه لا يحب أن يشهد هذه المشاهد لعظم الرحمة، حتى أقسمت عليه ليشهدها فشهدها، ففاضت عيناه. رزق بالابن إبراهيم فعلق عليه أملاً كبيراً. اجتمعت كل هذه العواطف فيه ثم لم يلبث ابنه إبراهيم أن توفاه الله تعالى ليستمر النبي ﷺ يتيماً لله ﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ﴾.

انكسفت الشمس يوم وفاته فقال بعضهم: انكسفت لموت إبراهيم بن النبي ﷺ، فلم يستجب النبي ﷺ لعاطفته، بل ثارت غيرة العبودية في قلبه فقال ﷺ: «إن الشمس والقمر لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته، وإنما آيتان من آيات الله يخوف الله بهما عباده». [٢] وأطال الصلاة والقراءة حيث قرأ بالبقرة وأطال الركوع ثم القراءة بعد ثم ركوع ثم سجود لشدة حبه لله تعالى.

١٢- تحذيره من عبادة قبره

من شدة غيرته لله تعالى حمل هم الشرك بعد وفاته. فخشي أن يشرك

١- رواه أحمد (١٨٥/٣) وصححه ابن حبان (٤٠٢٨) وحسنه الهيثمي (٢٥٢/٤، ٢٥٨)

٢- رواه البخاري (١٠٦٠/ ١٠٤٨)

بقبره مع الله تعالى فقال ﷺ: اللهم لا تجعل قبري وثناً. [(١)] وقال ﷺ: تسليمكم ليبلغني حيثما كنتم. [(٢)] لئلا يشدوا الرحال إلى قبره من أجل أن يسلموا عليه، ولذا قال ﷺ: لا تجعلوا قبري عيداً. [(٣)] أي يُجتمع عنده كما يجتمع الناس في الساحات في الأعياد يتبادلون فيه الطعام والشراب والعطايا والصدقات والهدايا.

ولذا قال ﷺ لحظة الوفاة: لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد. يحذر ما صنعوا. [(٤)]

١٣- الغيم

كان ﷺ يعلق أي حدث يحدث أمامه بعلاقته بالله تعالى من شدة حساسيته ومراقبته للعلاقة مع الله تعالى.

قالت أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: كان إذا رأى غيماً أو ريحاً عرف في وجهه. قلت: يا رسول الله إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟

قال: يا عائشة! ما يؤمِّني أن يكون فيه عذاب؟ عذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: ﴿هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾. [(٥)]

١- رواه أحمد (٢/٢٤٦) وصححه أحمد شاكر (١٣/٨٦) وصححه الألباني في تحذير الساجد (٢٥).

٢- رواه ابن أبي شيبة (٣/٣٦٦/٧٦١٦) وصححه الضياء أنظر تحذير الساجد (١٢٨).

٣- رواه أبو داود (٢٠٤٢) وحسنه الألباني تحذير الساجد (١٢٩).

٤- رواه البخاري (٤٣٦).

٥- رواه البخاري (٤٨٢٩)

١٤- بروك الناقة والفيل

ولما بركت ناقته ﷺ في الحديبية على أبواب الحرم قال الصحابة رضي الله عنهم: خلأت القصواء. لكن في هذه اللحظة مرَّ طيف الفيل بقلب النبي ﷺ لما برك على أبواب الحرم مع أبرهة، فقال ﷺ: ما خلأت القصواء، وما ذاك لها بخلق، ولكن حبسها حابس الفيل. ثم قال ﷺ: والذي نفسي بيده لا يسألونني خطة يعظمون فيها حرمات الله إلا أعطيتهم إياها. [١]

فتعظيمه لحرمات الله جعله يرجع أمام الناس، ويتحلل بلا عمرة، ويقبل شروط قريش التي ظاهرها فيها إجحاف للمسلمين.

١٥- رؤيا منام

كانت الحرب على أشدها بين المسلمين وبين قريش بعد حروب وسرايا بين الطرفين. فرأى النبي ﷺ في المنام أنه يذهب إلى بيت الله، ويطوف حول الكعبة. فسارع النبي ﷺ إلى الاستجابة إلى هذه الرؤيا من شدة حبه لله تعالى بالرغم من المخاطر العظيمة التي تنتظره، لكنه ﷺ لم يأبه لها لشدة عبوديته وحبه لله تعالى وتعلقه به، ولعله مرَّ بقلبه ﷺ طيف رؤيا إبراهيم عليه السلام يذبح ابنه وكيف سارع إبراهيم عليه السلام. وهكذا يقود الحب صاحبه.

١٦- التهيؤ للصلاة:

كان إذا قام من الليل للصلاة استاك بشدة تهيؤاً لمخاطبة الله تعالى، بل ولكل صلاة. لذا قال ﷺ: «لولا أن أشق على أمتي لأمرتهم بالسواك مع كل صلاة». [٢] وكان ﷺ يتجنب أكل الثوم والبصل من أجل الصلاة.

١- رواه البخاري (٢٧٣١-٢٧٣٢).

٢- رواه البخاري (٨٨٧)

١٧- ما زاغ البصر وما طغى

لما عُرج بالنبي ﷺ إلى السماء، وقام عند سدرة المنتهى، بين يدي الله تعالى، ما بينه وبين الله تعالى إلا نور الحجاب، لم يرفع بصره إلى الأعلى تأدباً مع الله تعالى، ولعله مر به طيف سؤال موسى عليه السلام رؤية الله تعالى وجواب الله له، فلم يرفع النبي ﷺ البصر، ولم يسأل الرؤية، ولم يلتفت يميناً ولا شمالاً لأن الله تعالى نصب وجهه لوجهه، غيرة لله تعالى. فقال سبحانه واصفاً أدبه الرفيع: ﴿ مَا زَاغَ ٱلْبَصَرُ وَمَا طَغَىٰ ﴾، فلم يزغ جانباً، ولم يطغ إلى الأعلى.

١٨- تلذذه بإظهار تقويم الله له فيما عاتبه الله فيه

لما عاتبه الله تعالى في ابن أم مكتوم: ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ لم يخفها النبي ﷺ، بل خالجه شعور من الحب مما يعجز عنه الوصف، فسارع ﷺ إلى الصحابة يجهر لهم بهذا العتاب الإلهي متلذذاً به، وجعل ابن أم مكتوم مؤذناً له في رمضان علماً لدخول وقت الإمساك «كلوا واشربوا حتى يؤذن ابن أم مكتوم فإنه لا يؤذن حتى يطلع الفجر». (١)

١٩- مقام الخلة وأحب الناس إليه

ولما اتخذ الله تعالى محمداً خليلاً له، غار النبي ﷺ لله تعالى، فتبرأ من خلة جميع الخلق، ولكن أثبت أخوة الإسلام فقال ﷺ قبل وفاته: «إني أبرأ إلى الله أن يكون لي منكم خليل. فإن الله قد اتخذني خليلاً كما اتخذ إبراهيم خليلاً». (٢)

١- رواه البخاري (١٩١٨-١٩١٩)

٢- رواه مسلم (٥٣٢)

ولما ابتلاه الله تعالى بأحب الناس إليه والذي كان مشركاً استجاب قلبه لله تعالى، وترك عواطفه تنقاد لمحبة الله تعالى.

كان أبو طالب يرعى النبي ﷺ ويحوطه ويدافع عنه، فلما مات على شركه قال ﷺ: لأستغفرن لك ما لم أنه عنك. فنزلت ﴿ مَا كَانَ لِلنَّبِيِّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن يَسْتَغْفِرُواْ لِلْمُشْرِكِينَ وَلَوْ كَانُوٓاْ أُوْلِى قُرْبَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلْجَحِيمِ ﴾. [١] فامتنع النبي ﷺ من الاستغفار له غيرة لله تعالى مع شدة حبه له.

وفي يوم رأى الصحابةُ النبيَّ ﷺ يبكي فلما سألوه أخبرهم بأنه استأذن الله تعالى في الاستغفار لأمه فأبى عليّ». فبكى النبي ﷺ، فأبكى من حوله.[٢]، فقال الراوي: فما رأيت ساعة أكثر باكياً من تلك الساعة. بكاء رحمة. [٣]

فعندما ابتلاه بأمه مع شدة حبه لها فأبى عليه أن يستغفر لها، لم يستغفر لها ﷺ.

ولما مات ابنه إبراهيم صغيراً لم يعلق التغيرات السماوية التي حصلت من كسوف الشمس بموت ابنه. هذا هو الحب الأكمل، والعبودية التامة لله تعالى.

٢٠- الحكم الشرعي يقول بخلافه

لما تنازع سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه وعبد بن زمعة رضي الله عنه في ابن وليدة

١- رواه البخاري (٤٦٧٥)

٢- رواه مسلم (٩٧٦)

٣- رواه البيهقي في الدلائل (١/١٨٩).

زمعة، كان المولود يشبه عتبة بن أبي وقاص، وقد بين عتبة أنه زنا بها وأنه ابنه، فطالب به سعد رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، بينما قال عبد بن زمعة رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: إن الجارية أمة لأبيه زمعة، فهو أخوه، ابن أبيه.

فحكم النبي ﷺ بالحكم الإلهي، ولم يحكم بالشعور القلبي بأنه ابن عتبة، فقال ﷺ: «الولد للفراش وللعاهر الحجر». [1] فحكم بالنص لا بما يخالج القلب استجابة لله تعالى، لا لما تدل القرائن الخارجية.

وكذا في حادثة الملاعنة حكم بالحكم الشرعي ولم يحكم بمشابهة ابن الملاعنة للرجل المتهم بالزنا فقال ﷺ: لولا ما مضى من كتاب الله لكان لي ولها شأن. [2]

٢١- عند اكتمال النعمة

عند اكتمال الفرح والنعمة يشتاق المحب لمخاطبة المحبوب ومجالسته حتى تتم النعمة. كما حدث ليوسف عَلَيْهِ السَّلَامُ لما كملت النعمة عليه باجتماعه بوالديه وإخوته، وقد تقلد أعظم منصب في مصر بعد الملك، وبعد أن سجد له والداه وإخوته تكريماً له، حينئذٍ اشتاق إلى الله تعالى، فانفرد يناجي ربه تعالى من شدة فرحه، فهو أعظم محبوب عنده، وترك حشد الخلان، فقال مناجياً متعبداً: ﴿رَبِّ قَدْ ءَاتَيْتَنِي مِنَ ٱلْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ ٱلْأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

١- رواه البخاري (٢٠٥٣)

٢- رواه البخاري (٤٧٤٧)

لما اكتملت النعم للنبي ﷺ أظهر أنها من الله تعالى لكمال المحبة لله والشكر والخضوع له. فعندما أتته الوفود مبايعة له خاضعة لملكه قال له بعضهم: «يا خيرنا وابن خيرنا، وسيدنا وابن سيدنا». فثارت غيرته لله تعالى فقال لهم: «قولوا بقولكم أو ببعض قولكم».

ولما حج عام الوداع أهدى للكعبة ١٠٠ بدنة، ونحر بيده ثلاثاً وستين بدنة على عدد أعوام عمره شكراً لله تعالى.

وقبل الوفاة قال ﷺ: «اللهم لا تجعل قبري وثناً يعبد». وقال عند الاحتضار في آخر ساعات حياته الشريفة: «لعنة الله على اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد».

وكذا لما خير عند الوفاة قال: «إن الله خير عبداً بين الدنيا وبين ما عنده فاختار ما عنده». وعند الاحتضار خيره مرة أخرى فاختار جوار الله تعالى قائلاً مستشرفاً مشتاقاً والهاً: «في الرفيق الأعلى».[١] صدر عن حب كامل من النبي ﷺ لله تعالى.

١- رواه البخاري (٤٤٤٩)

تعامل مع الله أفضل
مما تتعامل مع صالحي قومك

لتحقيق الأدب مع الله تعالى والتوخي لتحقيق حسن التعامل معه سبحانه لا بد من معرفة أسماء الله وصفاته، ومعرفة دين الله وشرعه (ما يحب وما يكره)، ونفس مستعدة قابلة لينة متهيئة لقبول الحق قولاً وعملاً.

لقد أصل النبي ﷺ أصلاً عظيماً في تعامله مع الله تعالى نستطيع من خلاله معرفة كيف نتأدب مع الله تعالى في تعاملنا معه، مع اعتبار الأصول الشرعية الأخرى. هذا الأصل العظيم هو أن نتعامل مع الله تعالى أفضل من تعاملنا مع صالحي القوم. وهذه بعض الصور النبوية التي أصلت هذا الأصل والتي تدل على شدة تعظيم النبي ﷺ لله تعالى وإجلاله ومحبته له.

• النخامة في قبلة المسجد

دخل النبي ﷺ المسجد ذات يوم فرأى نخامات في قبلة المسجد. فحتهن حتى أنقاهن، ثم أقبل على الناس مغضباً فقال: أيحب أحدكم أن يستقبله رجل فيبصق في وجهه؟ إن أحدكم إذا قام إلى الصلاة فإنما يستقبل ربه. والملك عن يمينه. فلا يبصق بين يديه ولا عن يمينه. [١] وقال ﷺ: «فإن الله بين أيديكم في صلاتكم». [٢]

• عدم استقبالها ببول ولا غائط

من شدة تعظيمه ﷺ لقبلة الله تعالى نهى الصحابة عن استقبالها بنجاسة،

١- رواه ابن خزيمة (٨٨٠).

٢- رواه ابن خزيمة (٩٢٦)

لذا قال سلمان الفارسي رضي الله عنه «لقد نهانا نبينا ﷺ أن نستقبل القبلة لغائط أو بول» [١]

● التعري بلا حاجة

قال معاوية بن حيدة: يا رسول الله! عوراتنا ما نأتي منها وما نذر؟

قال ﷺ: احفظ عورتك إلا من زوجتك أو ما ملكت يمينك.

قال: يا رسول الله، إذا كان أحدنا خالياً؟

قال ﷺ: الله أحق أن يستحيى منه من الناس. [٢]

● دين الله أحق بالوفاء

أتى رجل إلى النبي ﷺ فقال: إن اختي نذرت أن تحج وإنها ماتت.

فقال ﷺ: لو كان عليها دين أكنت قاضيه؟

قال: نعم.

قال ﷺ: فاقض الله، فهو أحق بالقضاء. [٣]

● شرط الله أحق وأوثق

قال ﷺ: «ما بال الناس يشترطون شروطاً ليس في كتاب الله؟ من اشترط شرطاً ليس في كتاب الله فهو باطل، وإن اشترط مائة شرط. شرط الله أحق وأوثق». [٤]

١- رواه مسلم (٢٦٢).

٢- رواه أبو داود (٤٠١٧).

٣- رواه البخاري (٦٦٩٩)

٤- رواه البخاري (٢١٥٥).

• نحن أحق بذلك منك

ضرب لنا النبي ﷺ الأمثلة على هذا الأصل في عفو الله ومغفرته.

قال حذيفة رضي الله عنه: أتى الله تعالى بعبد من عباده، آتاه الله مالاً.

فقال له: ماذا عملت في الدنيا؟

يارب! آتيتني مالك، فكنت أبايع الناس، وكان من خلقي الجواز. فكنت أتيسر على الموسر وأُنْظِر المعسر، فقال الله تعالى: أنا أحق بذا منك، تجاوزوا عن عبدي.

قال أبو مسعود الأنصاري: هكذا سمعته من في رسول الله ﷺ.[1]

• استنبطها ﷺ

وفي القرآن الكريم آيات كثيرة دلت على هذا الأصل العظيم، من ذلك قول الله تعالى: ﴿وَتَخْشَى ٱلنَّاسَ وَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَىٰهُ﴾.

وأمرنا الله تعالى بعد قضاء مناسك الحج بقوله: ﴿فَٱذْكُرُواْ ٱللَّهَ كَذِكْرِكُمْ ءَابَآءَكُمْ أَوْ أَشَدَّ ذِكْرًا﴾. وكذا في الصدقة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَنفِقُواْ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ ۖ وَلَا تَيَمَّمُواْ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُواْ فِيهِ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ﴾

بينما بعض الناس يتصدق بسقط المتاع وبفضلات الطعام.

وقوله تعالى ﴿ضَرَبَ لَكُم مَّثَلًا مِّنْ أَنفُسِكُمْ ۖ هَل لَّكُم مِّن مَّا مَلَكَتْ

١- رواه مسلم (١٥٦٠).

أَيۡمَٰنُكُم مِّن شُرَكَآءَ فِي مَا رَزَقۡنَٰكُمۡ فَأَنتُمۡ فِيهِ سَوَآءٞ تَخَافُونَهُمۡ كَخِيفَتِكُمۡ أَنفُسَكُمۡ ﴾ فضرب لنا مثلاً في عدم قبولنا هذا فكيف نقبله في حق الله تعالى لنجعل له شركاء.

ومنه قوله تعالى: ﴿ وَإِذَا بُشِّرَ أَحَدُهُم بِمَا ضَرَبَ لِلرَّحۡمَٰنِ مَثَلٗا ظَلَّ وَجۡهُهُۥ مُسۡوَدّٗا وَهُوَ كَظِيمٌ ﴾. فكيف لا يقبل المشركون نسبة البنات لهم ويقبلونه في حق الله تعالى؟!

لذا قال تعالى ﴿ وَلِلَّهِ ٱلۡمَثَلُ ٱلۡأَعۡلَىٰ ﴾ أي الله تعالى أولى بالتنزيه وأولى بصفات الكمال.

• طبعها في قلوب الصحابة

لقد رسخ النبي ﷺ هذا الاعتقاد في قلوب الصحابة رضي الله عنهم، ونقلها الصحابة للتابعين.

هذا التابعي الجليل نافع مولى ابن عمر أراد أن يصلي حاسر الرأس. فقال له ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: أتحب أن تخرج إلى الناس هكذا؟

نافع: لا.

ابن عمر: فالله أحق أن يتزين له.

وكان لبعض السلف حلة بمبلغ عظيم من المال يلبسها وقت الصلاة، ويقول: ربي أحق من تجملت له في صلاتي. بينما بعض الناس يصلي بثياب النوم ويلبس للعمل أفضل الثياب.

والحمد لله رب العالمين

إلهي

الفهرس